مجلة علم النفس — يونيو ١٩٥٠

السحر

فى ضوء الأنثروبولوجيا وعلم النفس

بقلم

نجيب يوسف بدوى

المدرس بطنطا الثانوية الحديثة

اكتسب السحر إلزامه وقهريته لا من غموضه وغرابته وحسب ، بل من قدمه وتأصله فى التاريخ . فقد عرف السحر فى جميع العصور ابتداء من العصر الحجرى القديم الأعلى ، كما أنه ذائع الانتشار بين مختلف الشعوب . وهو يهيمن على معتقدات الجماعات البدائية المعاصرة ، كما لا تخلو منه تماماً المجتمعات الحديثة الراقية . ومن عجب أنه حتى وقتنا هذا ما يزال الناس بشأنه بين منكر له ومصدق فيه : فأما الذين ينكرونه فلا سبيل إلى إقناعهم به ، وأما الذين يصدقونه فليس إلى تحويلهم عن الاعتقاد فيه من سبيل . . . إلا أن يكون ذلك بالعلم .

وقد ساهم كل من علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية[1] وعلم النفس فى جلاء غوامضه ، والكشف عن أسراره بأوفى نصيب . ومبلغ علمنا بالأنثروبولوجيا فى مصر ضئيل . فلا نكاد نجد — فيما نعلم — كتاباً واحداً بالعربية يمكن أن أن يدخل تحت هذا الاسم ! . وموضوع السحر متسع ومتشعب ، وكتب فيه علماء الغرب الشىء الكثير . ولا ندعى أننا استطعنا أن نلم بكل ما كتب فى هذا الموضوع . ومن هنا تبدو ضرورة تحديد مجال البحث . ونقرر منذ البداية أننا سنقتصر على الدراسة الموضوعية لهذه الظاهرة . وفى القسم الأول

---

(١) المجال الرئيسى لهذا العلم هو دراسة حضارات الجماعات البدائية المعاصرة . على أن مجاله لا يقتصر عليها ، فقد تمتد دراساته إلى المجتمعات الحديثة الراقية (التى يدرسها علم الاجتماع) من ناحية ، وإلى الحضارات القديمة فى عصور التاريخ وما قبل التاريخ من ناحية أخرى .

من هذا المقال سنعرض إضافات طائفة من علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية المعاصرين لتفسير هذه الظاهرة وهم : فريزر — مالينوفسكى — كروبير — السيدة مارجريت ميد . وفى القسم الثانى (السيكولوجى) سنتناول مساهمة فرويد فى الكشف عن غوامض هذه الظاهرة . ثم نضيف تفسيراً سلوكياً (أو شرطياً) للسحر يستند إلى تجارب باڤلوف فى الفعل المنعكس الشرطى . وفى القسم الأخير سنحاول التوفيق بين هذه المدارس فى تفسير شامل ، فى ضوء المنهج التكاملى . ولما كان كل من هؤلاء العلماء يمثل — بل لا نحسبنا مغالين إذا قلنا يتزعم — مدرسة من المدارس الأنثروبولوجية والسيكولوجية المعاصرة[١] ، ولما كان لكل من هذه المدارس طريقتها فى البحث ، فإنه يمكن اعتبار مساهمة كل منهم فى تفسير هذه المشكلة الخاصة وهى ظاهرة السحر ، نموذجاً لطريقة المدرسة التى ينتمى إليها — أو إذا شئت — التى تنتمى إليه .

* * *

المدرسة التطورية — فريزر ونظريته الترابطية للسحر :

قيل فى تعريف السحر إن معناه هو (أن يلتمس الإنسان النتائج من غير أسبابها) . وتعريف تيلور (E. B. Taylor) قريب من هذا المعنى فهو يعرفه بأنه « أخذ الاتصال المثالى (أو الوهمى) مأخذ الاتصال الحقيقى »"mistaking an ideal connection for a real one" وسيتضح مبلغ صدق هذا التعريف عند استعراض الأمثلة الشائعة للطقوس السحرية . ويتمشى هذا التعريف مع نظرية فريزر الترابطية للسحر[٢] (association theory of magic) .

وتعتبر دراسة فريزر لظاهرة السحر من أوفى الدراسات وأشملها وذلك لأنها دراسة رحبة الأفق عالمية المجال . فقد جمع فريزر بين دفتى كتابه « الغصن

---

(١) فريزر من أكبر علماء المدرسة التطورية — مالينوفسكى هو صاحب المدرسة الوظيفية أما كروبير والسيدة مارجريت ميد فيمثلان المدرسة الأنثروبولوجيه الأمريكية . ومن المعروف أن فرويد هو صاحب مدرسة التحليل النفسى — وأن تجارب باڤلوف تعتبر الدعائم التى قامت عليها مدرسة السلوكيين .

(٢) J.G. Frazer: Magic and Religion. London: Watts, 1944, Ch. III.
وتشتمل هذه الطبعة الصغيرة على الفصول السبعة الأولى من كتاب « الغصن الذهبى » — "The Golden Bough"

الذهبي » مئات الأمثلة عن السحر أينما وجد : من مختلف شعوب العالم البدائى منها والراقى ، ومن مختلف العصور قديمها وحديثها . وقد استخدم فريزر فى هذه الدراسة الطريقة المقارنة The comparative Method وهى طريقة علماء المدرسة التطورية فى الأنثروبولوجيا . وأهم خطوات هذه الطريقة ثلاث :

(١) جمع المادة والمعلومات عن الظاهرة المراد دراستها من شعوب مختلفة وعصور مختلفة .

(٢) تبويب هذه المعلومات ووضع ما تشابه منها تحت عناوين خاصة .

(٣) تحليل ومقارنة الأمثلة والحقائق ووضع نظريات لتفسيرها واستخلاص قوانين عامة .

استطاع فريزر باستخدام هذه الطريقة أن يرجع السحر إلى التطبيق الخاطىء لمبدأ ترابط الأفكار ، كما استخلص النموذجين الرئيسيين للطقوس السحرية وهما : السحر بالاقتران Contagious Magic والسحر بالتقليد Imitative Magic [١] . والنوع الأول وهو السحر بالاقتران ينطوى على تطبيق خاطىء لمبدأ ترابط الأفكار بالاقتران أو بالاتصال وفيه يرمز الجزء للكل . ومن أمثلته طريقة يعتقد الساحر أنه يستطيع بواسطتها إيذاء العدو وذلك بأن يحصل على أى شىء من متعلقاته مثل قصاصة من ملابسه أو قليل من شعره أو من بقايا أظافره ويعتقد الساحر أن ما يحل بالجزء يحيق أيضاً بالكل ! . أما النوع الثانى وهو السحر بالتقليد فهو تطبيق خاطىء لمبدأ ترابط الأفكار بالتشابه . وبمقتضاه يعتقد الساحر أن فى قدرته الحصول على النتائج المرغوبة بتقليدها أو بتمثيلها . وفى هذه الطريقة يستعين الساحر على من يريد إيذاءه بدمية صغيرة ترمز له يصنعها من الشمع أو من الطين ، فإذا غرس إبرة فى أى موضع من هذه الدمية وكرر ذلك مرات عديدة فإنه يتوقع أن يصاب صاحبها فى ذات الموضع من جسمه ! .

تقسيم الطقوس السحرية إلى هذين النوعين هو لسهولة الدراسة وفى الحياة العملية يوجد النوعان معاً ويطلق فريزر على النوعين معا اسم Sympathetic Magic . ومن أمثلة وجود النوعين معا تلك الطقوس السحرية التى يقوم بها

---

(١) Frazer: Ibid. P. 20

السحرة فى الملايو [١] . فإذا أراد الساحر منهم بشخص سوءا ، أخذ قليلا من شعره أو من بقايا أظافره ، وأدخلها فى دمية يصنعها من الشمع المأخوذ من خلية نحل مهجورة ، وفى كل ليلة يقرب هذه الدمية من النار ويصليها فوقها بعض الوقت دون أن يحرقها . ويكرر ذلك لمدة سبعة ليال . وفى الليلة السابعة يلقى بها فى النار ، ويتوقع بعدئذ وفاة صاحبها !

على أن السحر لا يقتصر استخدامه على الإيذاء ، بل يستخدم فى أغراض أخرى بدعوى المساعدة فى الولادة ، وفى علاج الأمراض . وفى استجلاب الحظ فى الصيد ، وفى استنزال المطر ، إلى غير ذلك من الأغراض والادعاءات ، وكلها يدخل تحت هذين النوعين. وكتاب فريزر مفعم بأمثلة للنوعين من مختلف العصور ، ومن مختلف الشعوب . ولكى نوضح تقسيم فريزر للسحر إلى هذين النوعين ، سنختار أمثلة ثلاثة للطقوس السحرية : عند قدماء المصريين — وعند الاستراليين القدماء — وعند سكان الكهوف فى غرب أوربا فى العصر الحجرى القديم الأعلى . وفى كل من هذه الأمثلة الثلاثة يوجد النوعان معاً : السحر بالاقتران ، والسحر بالتقليد ، وكلاهما تطبيق خاطىء لمبدأ ترابط الأفكار .

كان الكهنة المصريون فى طيبة يقومون بطقوس سحرية للمعبود رع إله الشمس . وهذه الطقوس يراد بها مساعدة الشمس على الظهور وذلك بالتنكيل بعدو الشمس المدعو (إبيبى) ويرمز له بالتمساح . وتتلخص هذه الطقوس فى عمل دمية للتمساح من الشمع يكتب عليها اسمه بالمداد الأخضر ، وتغلف هذه الدمية فى ورق البردى ويرسم على هذا الغلاف رسم آخر للتمساح بالمداد الأخضر ، ثم يربط بشعر أسود ، ثم يبصق الكاهن عليها ويطعنها بمدية ، ثم يطرحها أرضاً ويطؤها بقدمه اليسرى ، وأخيراً يلقى بها فى النار . وكانت هذه الطقوس تتكرر مرات عديدة فى اليوم الواحد . يتضح من هذا المثال بجلاء المبدآن الأساسيان اللذان يرجع فريزر السحر إلى تطبيقهما الخاطىء ، وهما ترابط الأفكار بالاقتران — أى الدمية التمساح ترمز لعدو الشمس ، وترابط الأفكار بالتشابه كأنما التنكيل بعدو الشمس وتكرار ذلك ، يساعد الشمس على التغلب على عدوها .

(١) Ibid. P. 21.

والتطبيق الخاطىء لمبدأى ترابط الأفكار بالاقتران ، وترابط الأفكار بالتشابه ، تقوم عليه الطقوس السحرية لدى سكان استراليا الأصليين . وهذه الجماعات البدائية توجد فى مستوى يعادل حضارة الإنسان فى العصر الحجرى القديم . ومن أهم هذه الطقوس نوعان : الأول للإكثار من حيوان الطوطم ويطلق عليها Multiplication Ceremonies وتتلخص فى أن أتباع طوطم النعامة مثلا ، ينقشون صورة هذا الحيوان على الصخر ويلونونها باللون الأحمر (المغرة أو أكسيد الحديد) ثم يدورون حول هذه النقوش الملونه يغنون ويرقصون ويقلدون حركات هذا الحيوان . وهذه الطقوس يراد بها المساعدة فى الإكثار من توالد حيوان الطوطم[١] . والنوع الثانى هو طقوس تنصيب المراهقين والاحتفال بختانهم Initiation Ceremonies وتقام هذه الاحتفالات بجوار النقوش السالفة الذكر . وهذه النقوش توجد فى أماكن يحرم على النساء وعلى الأطفال غير المختنين دخولها . وفى هذه الاحتفالات يلقن الكبار المراهقين الذين يحتفل بتنصيبهم وبختانهم أسرار الحياة ، ولأول مرة يطلعونهم على الأشياء المقدسة عند القبيلة ، ومن جملتها هذه النقوش ، كما يحذرونهم من اغتصاب المحرمات من النساء .

ولعل من حسن المصادفة أن البحوث الإثنوجرافية لحضارات هذه الجماعات البدائية قد ظهرت فى نفس الوقت الذى كان فيه علماء الأركيولوجيا ينقبون عن آثار سكان الكهوف فى شمال أسبانيا وجنوب فرنسا ، وعلى جدران هذه الكهوف وفى أعماقها السحيقة وجدت نقوش ملونة لحيونات قديمة بعضها بادت . وترجع هذه النقوش إلى العصر الحجرى القديم الأعلى . وكانت الآراء قد اختلفت بشأن الدافع إلى هذا الفن القديم . وقد اتضح أن دراسة حضارات الجماعات البدائية المعاصرة تساعد على تفسير ما غمض من حضارات الإنسان فى عصور ما قبل التاريخ لما بين هذه الحضارات من أوجه شبه كبير وإن بعدت المسافة وبعد الزمن . فالغرض من تصوير الحيوانات فى أعماق الكهوف ومن تلوينها بالدهن وأكسيد الحديد الأحمر ، ومن تصوير السهام والجراح فى بعض نقوش هذه الحيوانات هو الاعتقاد فى قيمتها السحرية[٢] . ويمكن أن نتبين فيها النوعين اللذين ميزهما فريزر : فالدهن جزء من الحيوان (الجزء الذى يرمز

(١) Frazer: P. 28.

(٢) M.C. Burkitt: "The Old Stone Age", Cambridge, 1933. P. 210.

للكل) كما أن اللون الأحمر رمز للحياة (وقد استخدم أكسيد الحديد أو المغرة فى طقوس الدفن منذ عصور ما قبل التاريخ . كما تدل على ذلك الأبحاث الأركيولوجية فى أنحاء عديدة من المعمورة) . وهذا من قبيل السحر بالاقتران. كما أن تصوير الجراح والسهام فى بعض نقوش هذه الحيوانات هو من قبيل السحر بالتقليد . كأنما نقش السهام فى رسوم الحيوانات ، يجعل زمامها فى متناولهم ، ويساعدهم على النجاح الفعلى فى الصيد .

يتضح من هذه الأمثلة أن تقسيم فريزر للسحر إلى نوعيه (السحر بالاقتران — والسحر بالتقليد) يعتبر أهم إضافاته . وإلى أحد هذين النوعين أو إلى الآخر أو إلى النوعين معاً تستطيع أن تنسب شتى ضروب الدجل ومختلف صنوف الشعوذة كما توجد بين جميع الشعوب وفى مختلف العصور . ومن الطريف أن كلا النوعين معروف فى مصر . ويمكن أن تتبينهما فى طقوس الرقية المعروفة لإفساد الحسد . فالعامة تعتقد أن بعض أمراض الأطفال نتيجة للحسد . فإذا توعك طفل تولت جدته أو قريبة له من نساء الحيل القديم رقيه . فتطلق البخور ، وتلقى بالشبة (والفاسوخة) فى النار ، ثم تقص قطعة صغيرة من الورق على شكل دمية (الجزء الذى يرمز للكل فى السحر بالاقتران) ثم تتمتم بتعويذة — نورد هنا نصها [1] لمن تعنيه دراسة الميتولوجيا — وفى أثناء تلاوتها تمس على الطفل بيدها سبع مرات ، ثم تتناول الدمية الورق وتثبتها بإبرة وتكرر ذلك (سحر بالتقليد) وهى تقول « رقيتك من عين فلان . . . رقيتك من عين فلانة » وتسرد اسم كل من يتطرق إليه الشك فى أن يكون من ذوى العيون الصفراء ، ثم تحرق الدمية فى النار ، وتخرج منها قطعة الشبه المنتفخة ، فتتفرس فيها علّها تتعرف منها على شخصية الحسود ! . ثم يطأ الطفل قطعة الشبه بقدمه اليسرى ثم توضع قطعة الشبه مع مليم فى قطعة من القماش وتلقى بها فى مفرق الطرق . وتترقب العائلة بعدئذ التحسن فى صحة الطفل المريض !

---

(١) تقول : « امباس امباس ، لحطك ياعين فى قفم نحاس . رقيتك واسترقيتك من عيون الناس. قابلها سيدنا سليمان فى وسع الجبال قال لها : « رايحة فين يا عين ؟ » قالت له : « رايحة للى حبا ودبا ، اللى عرف الأم من الأب ، أديه بريشة بين كتافيه ، أخلى أمه وأبوه يبكوا عليه » قال لها : « خزيتى ... لحطك يا عين فى قفم نحاس وأسبك عليكى بالزئبق والرصاص » ...

وفى الصعيد تقال تعويذة أخرى « يا عين يا عنيه ، يا خاينه يا رديه ، لا تخونى فى المال ولا فى الدريه . إن كانت عين راجل تطلع الحاجر ، وإن كانت عين مره ، تروح المقبرة » .

يشير فريزر كذلك إلى علاقة السحر بالتطير . فهو يتبين فى السحر ناحيتين : إيجابية وسلبية[١] . فالناحية الإيجابية هى الطقوس التى يراد بها الحصول على نتائج معينة . والأمثلة التى أوردناها فيما سبق توضح هذه الناحية . أما الناحية السلبية فهى الامتناع عن أعمال خوفاً من نتائجها السيئة أو الخطرة المزعومة . وهذه الناحية السلبية هى المحظورات أو المحرمات Taboos . والامتناع عن الوقوع فى هذه المحظورات والتشاؤم والخوف منها هو من قبيل التطير . وفى كلا الناحيتين الإيجابية أى الطقوس السحرية ، والسلبية أى التطير من المحظورات ، نلمس التطبيق الخاطىء لمبدأى ترابط الأفكار بالاقتران ، وترابط الأفكار بالتشابه .

من خصائص السحر أيضاً عدم التقيد بحدود المكان أى التسليم بإمكان التأثير عن بعد فى الأشخاص وفى الأشياء ، وهو ما يعرف بالتخاطر[٢] telepathy . وسندع هذه الناحية جانباً طالما أننا قد آلينا على أنفسنا أن نقتصر على الدراسة الموضوعية لهذه الظاهرة .

والسحر لحمته وسداه السببية الخاطئة[٣] وهذا هو الفارق الهام بينه وبين العلم . فالقوانين السببية العلمية مؤكدة وثابتة ، ويمكن إعادة إجراء تجربتها للتأكد من صدقها وثبوتها . فإذا قلنا إن الملاريا ينقلها نوع خاص من البعوض ، أو أن الحديد يتمدد بالحرارة ، فالبعوض هو حامل ميكروب الملاريا وسبب نقل هذا المرض ، والحرارة هى سبب التمدد ، وليست الملاريا ولا تمدد الحديد نتيجة لعوامل أخرى . أما فى السحر فالنتائج قد ترجع للقضاء والقدر ، أو أو للمصادفة ، وقد ترجع لأسباب كشف عنها العلم ، ومع هذا تنسب النتائج إلى السحر أى إلى غير أسبابها . مثال ذلك سقوط المطر فهو يرجع لعوامل مناخية معروفة ، ولكن القدرة على استنزاله تنسب — عند الجماعات البدائية — إلى مهارة الساحر وقدرته ، أى تعتبر سقوط المطر نتيجة لسبب وهمى خاطىء هو الطقوس السحرية . كذلك خسوف القمر ، وهى ظاهرة كشف العلم بجلاء

---

(١) Frazer: Ibid. P. 32.

(٢) راجع « الاستشفاف والتخاطر » بقلم مصطفى إسماعيل سويف — مجلة علم النفس فبراير سنة ١٩٤٦ مجلد ١

(٣) Frazer: Ibid Ch. IV.

عن سببها . ولكن يبدو للعامة وكأنما دق الصفائح هو الذى يكشف عن القمر غمته ، ويحيل ظلمته نوراً .

وإذا أضفنا هذه السببية الخاطئة إلى بقية نظرية فريزر الترابطية للسحر ، لاتضح لنا صدق تعريف تيلور للسحر بأنه « أخذ الاتصال المثالى (أوالوهمى) مأخذ الاتصال الحقيقى » . وتعتبر نظرية فريزر الترابطية للسحر الأساس الذى بنى عليه أغلب العلماء الذين تناولوا هذه الظاهرة بالدراسة بعده . وكل منهم يبدأ حيث انتهى فريزر من دراسته المقارنة .

* * *

المدرسة الوظيفية : مالينوفسكى .

النقد الأساسى الذى يوجه إلى الطريقة المقارنة التى استخدمها فريزر وغيره من علماء المدرسة التطورية ، هو أنها تنزع بطبيعتها إلى أن تكون سطحية ، لا تتعمق الظواهر إلى علاقاتها الداخلية واتصالاتها ببقية مظاهر الحضارة التى تكون وإياها وحدة . وذلك لأن اتساع الأفق المكانى وبعد الأمد الزمانى فى الطريقة المقارنة يجعلانها بالضرورة طريقة استعراض سريع ، تقتطف الأمثلة اقتطافاً من أصولها فى العصر أو فى الإقليم ، وتنتزع الظاهرة انتزاعا من مشمولها فى الحضارة ، وتعالجها من حيث الشكل ، وقد ينطوى التشابه فى الشكل أو فى المظهر ، على اختلاف فى الوظيفة أو فى الجوهر .

والطريقة الوظيفية تعتبر مكملة للطريقة المقارنة التى ما تزال باعتراف ناقدها « الطريقة المثلى والأداة النظرية الأساسية لتكوين المبادىء العامة فى الأنثروبولوجيا »(١) ويتزعم مالينوفسكى المدرسة الوظيفية فى الأنثروبولوجيا التى تستخدم هذه الطريقة الوظيفية . وقبل أن نتكلم عن هذه الطريقة ، نذكر أن مالينوفسكى يؤيد تقسيم فريزر للسحر إلى نوعيه : السحر بالاقتران ، والسحر بالتقليد . ويضيف إلى ذلك ملاحظة هامة وهى أن السحر بالتقليد يبين بوضوح أن شكل الطقوس السحرية ينم عن وظيفتها المرجوة منها ، وأن لكل غرض طقوس خاصة هى تمثيل وتقليد للغرض المطلوب(٢) .

(١) B. Malinowski: "A Scientific Theory of Culture and Other Essays", Chapel Hill, 1944, P. 212.

(٢) Ibid .P. 199.

درس مالينوفسكى حضارة جماعة بدائية واحدة ، تسكن جزر تربرياند (Trobriand)، فى شمال غرب مجموعة جزائر ميلانيزيا . وقد درس حضارة هذه الجماعات دراسة تفصيلية ضافية . فأقام بين هذه الجماعة ، وتعلم لغتها ، وساهم فى نواحى نشاطها ، وعنى بتفهم العلاقات التى توجد بين مختلف عناصر ومظاهر هذه الحضارة . فاهتمامه إذن لم يكن بالمقارنات بين حضارات جماعات مختلفة ، فى عصور مختلفة — كما فعل فريزر — بل بوظيفة كل عنصر من عناصر الحضارة واتصالاته وعلاقاته ببقية مظاهر الحضارة فى داخل حضارة هذه الجماعة الواحدة ، وينادى مالينوفسكى بضرورة اعتبار حضارة كل جماعة وحدة ، وهذه الوحدة تتكون من عناصر مؤتلفة مترابطة ومتصلة وبينها علاقات . فوحدة الحضارة حينئذ أكثر من مجموع عناصرها ، فهى تساوى هذه العناصر مضافاً إليها العلاقات التى توجد بين بعضها والبعض الآخر ، وبينها وبين الوحدة . ودراسة هذه العلاقات لا يقل أهمية عن معرفة حقيقة هذه العناصر ذاتها . فظاهرة اجتماعية كالسحر ليست منعزلة ولا منفصلة بل مترابطة مع بقية مظاهر الحضارة ، ولها وظيفة ، فما هى وظيفة السحر ؟

وجد مالينوفسكى أن السحر يلعب دوراً هاماً فى حضارة هذه الجماعة التى التى تسكن الجزر المرجانية فى المحيط الهادى . ولكنه لاحظ أن بعض نواحى نشاطهم لا تكون مصحوبة بأعمال سحرية ، بينما يكون بعضها الآخر مصحوباً بالسحر : فصيد السمك بواسطة السم من المياه الداخلية — التى تحدق بها الجزر المرجانية الهلالية الشكل — لا تصحبه أعمال سحرية ، لأنها طريقة سهلة ومضمونة النتائج ، بينما الصيد من المحيط الذى تكتنفه المخاطرة يسبقه طقوس سحرية [1] كذلك لاحظ أن زراعة الكاكاو والموز والمانجو لا يصحبها السحر ، بينما تلازم زراعة جذور اليام (تشبه البطاطا) أعمال سحرية . كذلك بناء المساكن ، وهى مهمة سهلة ، لا تكون مصحوبة بالسحر ، بينما يلازم السحر صناعة القوارب ، وهى مهمة دقيقة شاقة ، كما أن القوارب تستخدم فى أعمال تكتنفها المخاطرة . وكذا الحرب والحب واستنزال المطر فهذه كلها يكتنفها السحر من كل جانب .

(١) B. Malinowski: "Myth In Primitive Psychology", London, Kegan Paul, 1926, Ch. IV. P. 108.

من هذه الملاحظات استخلص مالينوفسكى ذلك التعميم[١] وهو : أن السحر لا يوجد أينما كان العمل مأموناً ومضموناً ، ويمكن التحكم فيه والحصول على النتائج المرجوة منه بالخبرة والمعرفة والمهارة . بينما يتم الالتجاء إلى السحر عن غرض ويفصح عن حاجة . . . إنه رد فعل لشعور الإنسان بقصوره وقلة حيلته فى عالم لا يستطيع أن يتحكم فى ظواهره . فالسحر يوجد فى إحدى حالتين : فى حالة الجهل بالنتائج ، وفى حالة الجهل بالأسباب .

فأينما كانت نتائج العمل غير مضمونة ، وعواقبه غير مأمونة — كما فى الحرب وفى الصيد — وأينما وجدت عناصر المصادفة والحظ ، وجد السحر وتكون وظيفته هى استجلاب الحظ ، وبعث الثقة فى النفس وإشاعة التفاؤل فيها وهذه هى وظيفته السيكولوجية . ذلك أن أعمال الإنسان ينبغى أن يؤيدها الشعور بالثقة من النجاح ، وكلما قويت هذه الثقة ، كان احتمال النجاح كبيراً . وكلما تطرق الشك إلى النفس ، وتزعزعت الثقة ، وتسربت تلك التيارات المضادة الهدامة من التردد والإحجام والشك إلى نفس صاحبها ، فترت عزيمته ، ووهنت قوته ، وأصبح أدنى إلى الفشل منه إلى النجاح .

كذلك يوجد السحر فى حالة الجهل بالأسباب . فالسحر لحمته وسداه السببية الخاطئة (يتفق مالينوفسكى مع فريزر فى هذه الناحية كذلك) . ففى حالة الجهل بأسباب الظاهرات الطبيعية كالمطر ، ينسب سقوطه إلى مهارة الساحر . وكذلك فى حالة الجهل بأسباب المرض ، ينسب المرض إلى فعل السحرة . وقد لاحظ مالينوفسكى أن هؤلاء البدائيين يفرقون بين الأمراض التى تحدث نتيجة لأسباب طبعية كالشيخوخة والإفراط فى الطعام ، أو نتيجة الإصابات فى الحوادث الطارئة ، وبين الأمراض الغامضة التى ليس فى متناول إدراكهم معرفة أسبابها ، فيرجعونها إلى السحر . فللسحر وظيفة أخرى هى أنه يسد الثغرات الناقصة فى المعرفة ويعوض هؤلاء البدائيين عن جهلهم ، ويساعدهم على تخطى الفجوات فى حياتهم الاجتماعية . وبذلك لا يقف هؤلاء البدائيون حيال المشاكل والعقبات التى ليس إلى التحكم فيها بالخبرة أو بالمهارة من سبيل ، مكتوفى الأيدى ، وإنما يستعينون عليها بالسحر . وهذه هى وظيفة السحر الاجتماعية[٢] .

(١) Ibid. P. 110.

(٢) Malinowski: Myth In Primitive Psychology. P. 111.

هاتان الوظيفتان السيكولوجية والاجتماعية للسحر هما أهم إضافات مالينوفسكى فهو يفسر السحر فى ضوء نظريته العلمية للحضارة ، التى يُرجع فيها الظاهرات المختلفة للحضارة إلى الحاجات الأولية البيولوجية ، والحاجات الثانوية المشتقة . فمعنى الوظيفة عند مالينوفسكى هو تحقيق هذه الحاجات . والسحر يفصح الالتجاء إليه عن الحاجة إلى الأمن . فهو رد فعل بشعور الإنسان بقصوره وقلة حيلته ، فى عالم لا يستطيع أن يتحكم فى ظواهره ، فيخترع زماماً — حقيقة أنه زمام وهمى — إلا أنه يبعث الثقة فى النفس ، ويسد الثغرات الناقصة فى المعرفة .

* * *

المدرسة الأنثروبولوجية الأمريكية [١] : كروبير — مارجريت ميد .

يعترض كروبير [٢] على تفسير مالينوفسكى بأنه تفسير محلى ، قد يصدق على الجماعات التى تسكن جزر ميلانيزيا ، ولكنه ليس مبدأ عاماً يصدق على كل الجماعات التى تلجأ إلى السحر ويذكر على سبيل المثال الإسكيمو فحياتهم شاقة تكتنفها الأخطار من كل جانب ، فكان من المنتظر — إذا صح التفسير بالحاجة — أن يكون التجاؤهم للسحر أكثر وأظهر من التجاء سكان جزر ميلانيزيا إليه . ولكن الواقع غير ذلك . فإن الإسكيمو قوم عمليون ، يعتمدون على آلاتهم ، وعلى مهاراتهم ، ولا يلجأون إلى السحر إلا فيما ندر . فالسحر إذن لا يفصح إلالتجاء إليه عن حاجة بشرية عامة تصدق على كل الجماعات . بل إن هذا التفسير إذا انطبق على حضارة سكان جزر ميلانيزيا — وهى الحضارة التى درسها مالينوفسكى — فإنه لا ينطبق على حضارة سكان جزر بولينيزيا المجاورة ، وهم الذين لا يلجأون إلى السحر إلا لماماً ، على الرغم من تشابه ظروف البيئة فى هاتين المجموعتين المتجاورتين من الجزر ،

---

(١) لهذه المدرسة فرعان : الأول تاريخى يعنى بدراسة التوزيع Diffusion ويتخذ أنصاره وحدة الدراسة « المنطقة الحضارية » Culture Area ومن أعلامه كروبير A. L. Kroeber والثانى سيكولوجى يعنى بالدراسة الوظيفية الاجتماعية للحضارات ويهتم أتباعه بإبراز نموذج أو طابع الحضارة "Culture Pattern" ومن أعلامه السيدتان مارجريت ميد M.Mead ، روت بندكت R. Benedict .

(٢) A.L. Kroeber: Anthropology. Harrap: New Edition, Revised, 1948. P.P. 308, 309.

وبالتالى تشابه المشاكل والحاجات . يضيف كروبير مثالا ثالثاً من حضارة بعض قبائل الهنود الحمر من سكان كليفورنيا الأصليين — وهى الحضارة التى قام كروبير بدراستها بنفسه — . هذه القبائل تعيش فى إقليم وفير الخيرات معتدل المناخ ، يمدهم النهر بحاجتهم من الأسماك ، والخيل بحاجتهم من الذرة ، كما أنه لم يتهددهم وباء أو أعداء مغيرون . وعلى الرغم من اجتماع هذه الظروف الملائمة ، فإن حضارتهم يكتنفها السحر والتطير من المحظورات والتابوات Taboos من كل جانب : التطير من شرب ماء النهر خشية أن يكون مسموماً . التطير من تناول الطعام فى القارب أثناء سيره . الامتناع عن أكل السمك ولحم الخنزير فى وجبة واحدة . . . وهكذا تطيرات لا تكاد تقع تحت حصر ، ولا يمكن أن تكون إفصاحاً عن حاجة أو أملها ضرورات هامة أو مشاكل ملحّة .

يتضح من ذلك أن تفسير مالينوفسكى للسحر بأن الالتجاء إليه يفصح عن حاجة وبأن له وظيفة . . . إنما هو تفسير جزئى . هذا فضلا عن أن القول بالحاجات يعنى أنها فطرية تلقائية جُبل عليها الإنسان . ولكنه مهما يكن من أمر هذه الاستعدادات الفطرية والحاجات الأولية ، فإنها تتعدل فى قالب أو « طابع الحضارة Culture Pattern » . كما أن القول بالعوامل الفطرية معناه تجنب المشكلة أو هو كإحالتها إلى شىء ليس إلى التدخل فيه أو تعديله من سبيل . إنه الجانب المكتسب هو الذى يستأهل منا العناية .

ولعل مما يلقى لنا ضوءا على أهمية الجانب المكتسب فى كل من ظاهرتى السحر والتطير ، ذلك البحث الطريف عن الأنيمية Animism أى الاعتقاد فى الأرواح ، الذى قامت به السيدة مارجريت ميد M. Mead بين أطفال جماعة مانوس (Manus) التى تسكن بعض جزر ميلانيزيا . كان الغرض من هذا البحث هو بيان العلاقة بين الأنيمية التلقائية والصفات العقلية للأطفال ممن هم دون الخامسة أو السادسة . وقد جاءت نتيجة هذا البحث سلبية : « وجدت الأدلة التى تؤيد الرأى القائل بأن الأنيمية ليست من الخصائص التلقائية فى تفكير الأطفال ، ولا هى تميز تفكير العقول الصغيرة غير الناضجة وإنما يتوقف وجودها أو عدم وجودها فى تفكير الأطفال على عوامل الحضارة واللغة والأساطير واتجاهات الكبار إلخ . وهذه العوامل الحضارية أصلها من

تفكير الكبار وليس فى خيالات الأطفال »[١] .

يتضح من ذلك بجلاء أهمية الجانب المكتسب ، وأهمية الحضارة أو الوسط فمنه يكتسب الناشىء فكرة الأنيمية أى الاعتقاد فى الأرواح ومثل ذلك يمكن أن يقال عن التطير . ولقد حاولنا إثبات طريقة اكتساب التطير على أساس الفعل المنعكس الشرطى[٢] . ولعل أحد تطبيقات الاختبار المقترح للتطير أن يبين لنا السن التى يبدأ عندها ظهور فكرة التطير . وإذا كان للجانب المكتسب مثل هذه الأهمية فى كل من التطير والاعتقاد فى الأرواح ، فيلوح أن مثل ذلك يمكن أن يقال عن الاعتقاد فى السحر . وبذلك تكون هذه الظاهرات الثلاث من قبيل الاستجابات المكتسبة الشاذة .

* * *

مدرسة التحليل النفسى — فرويد .

أطلق التحليل النفسى فيضاً من الضوء على الظاهرات الغيبية كالاعتقاد فى الأرواح والشياطين ، والتطير[٣] ، والتابوات أو المحظورات[٤] Taboos التى تعتبر ناحية سلبية للسحر . كذلك تناول فرويد ظاهرة السحر ذاتها بالدراسة من وجهة نظر التحليل النفسى . وهو يتخذ أساس هذه الدراسة تقسيمات فريزر للسحر إلى نوعيه : السحر بالاقتران الذى ينطوى على تطبيق خاطىء لمبدأ ترابط الأفكار بالاقتران . والسحر بالتقليد الذى ينطوى على تطبيق خاطىء لمبدأ ترابط الأفكار بالتشابه . فهو يؤيد نظرية فريزر الارتباطية للسحر ولكنه يتعمق هذه الظاهرة ليصل إلى أسسها السيكولوجية وذلك بمقارنة البدائيين بالأطفال من ناحية وبالعصابيين من ناحية أخرى[٥] . ويرى فرويد أن الدافع إلى الالتجاء إلى السحر هو الرغبات . وبما أن الطقوس السحرية هى تقليد للأغراض المطلوبة ، وتمثيل للرغبات (كما أشار إلى ذلك مالينوفسكى) فإنها تشبه ألعاب الأطفال الإيهامية . فالطفل له رغبات ويعجز لصغره عن تحقيقها فيهيئ

(١) Margaret Mead: "Groing mUp In New Guinea", Pelican, 1942. P. 166.

(٢) « اختبار للتطير » فى مجلة علم النفس . عدد أكتوبر سنة ١٩٤٩ مجلد ٥ .

(٣) « سيكولوجية التطير » فى مجلة علم النفس عدد يونيو سنة ١٩٤٩ مجلد ٥ .

(٤) «التحليل النفسى للعقل البدائى» أحمد أبو زيد فى مجلة علم النفس عدد فبراير سنة ١٩٤٩ مجلد ١ .

(٥) S. Freud: Totem and Taboo. Pelican, PP. 118-122.

حوله بالألعاب الإيهامية جوا يتخيل فيه أنه يمارس هذه الرغبات . يقابل هذه الألعاب عند الأطفال تقليد الرغبات وتمثيلها بالطقوس السحرية عند الجماعات البدائية . فهذه الطقوس تفصح عن الرغبات . وفى كلتا الحالتين وجد المغالاه فى تقدير الفكرة النفسية فى الداخل إذا ما قورنت بما يقابلها من حقيقة الواقع فى الخارج ، وهو ما يطلق عليه « القوة المطلقة للفكر » Omnipotence of thought . وهذا هو المبدأ الذى يتحكم فى السحر . وكما أن الفكر لا يتقيد بحدود الزمان أو حدود المكان فكذلك السحر يسخر من قيود الزمان وقيود المكان .

وهذا المبدأ الذى يتحكم فى السحر وهو « القدرة المطلقة للفكر » تتسم به الحياة النفسية للعصابيين ، ولا سيما المرضى من أصحاب الفكرة المتسلطة أو المصابين بالظواهر العصبية القهرية التى تعرف باسم « الإلزام العصابى » Compulsion Neurosis وهؤلاء تؤنبهم ضمائرهم على أعمال لم يقوموا بها ، ويشعرون بالذنب على جرم لم يرتكبوه فعلا . وهذه المبالغة فى الشعور بالذنب الدافع إليها لاشعورى . إنها نتيجة للنزعات العدائية القاسية ، وللتمنيات الشريرة للغير بالموت التى كبتت فى اللاشعور . وإذا ما حاول المعالج أن يكشف عما فى اللاشعور ، وأن يخرجه بالتحليل النفسى إلى مستوى الشعور ، صادف من العصابى مقاومة شديدة . وخشى المريض المتطير أن يفصح عن هذه التمنيات الشريرة للغير بالموت خوفاً من أن تتحقق فعلا على إثر تفوهه بها . هذا الاتجاه علاوة على التطير الذى يلعب دوراً هاماً فى حياة العصابى ، يتضح منه وجه الشبه بينه وبين الرجل البدائى الذى يعتقد أنه يستطيع أن يحدث حدثاً فى العالم الخارجى بمجرد تفكيره فيه . ويزيده اعتقاداً فى القدرة المطلقة لفكره ، ما يراه من طقوس هى تقليد للغرض المطلوب ، وتمثيل لتحقيق الرغبة وفق إرادته . فالسحر يبين بوضوح الميل إلى فرض قوانين الحياة النفسية على طبائع الأشياء[1] ، والميل إلى إسقاط ما فى النفس على العالم الخارجى .

الرموز المشروطة :

رأينا أن أهم إضافات فريزر فى دراسته المقارنة للسحر هى نظريته الترابطية

---

(١) Freud: Ibid. P. 127.

التى يرجع فيها السحر إلى التطبيق الخاطىء لمبدأ ترابط الأفكار ، وفيها استخلص النموذجين الرئيسيين للطقوس السحرية وهما : السحر بالاقتران وهو تطبيق خاطىء لمبدأ ترابط الأفكار بالإقتران . والسحر بالتقليد وهو تطبيق خاطىء لمبدأ ترابط الأفكار بالتشابه . وهذا التقسيم هو لسهولة الدراسة . وفى الحياة العملية يوجد النوعان معاً .

ومن الطريف أن هذين النوعين يقابلان ناحيتين متكاملتين فى ميكانيزم الشرطية ورمزيتها[١] . ويتوفر فيهما الشرطان اللازمان لتكوين الاستجابة المكتسبة الشرطية . وهذان الشرطان هما : الجزء الذى يرمز للكل ، والتكرار للتثبيت . فى النموذج الأول وهو السحر بالاقتران ، يرمز الجزء للكل ؛ أى أن شعر أو بقايا أظافر الشخص أو قصاصة من ملابسه ترمز للشخص كله . وفى النموذج الثانى وهو السحر بالتقليد ترمى الطقوس إلى تكرار تمثيل وتقليد الغرض المطاوب . ومثال ذلك وخز الدبابيس فى المسخ المصنوع من الشمع أو من الطين . وميكانيزم الشرطية فى هذا النوع هو التكرار للتثبيت .

لهذه الملاحظة أهميتها البالغة وذلك لأن الشرطية تستند إلى التجريب العلمى[٢] . وقد أوردنا فى صدر هذا المقال — لتوضيح نظرية فريزر الترابطية — أمثلة للسحر فى الملايو ، وعند كهنة قدماء المصريين ، وعند الاستراليين القدماء ، وعند سكان الكهوف فى العصر الحجرى القديم الأعلى ، وأخيراً طقوس الرقية المعروفة فى مصر . وقد أوضحنا فى كل منها وجود النوعين معا السحر بالاقتران ، والسحر بالتقليد . فإذا ما رجعنا إلى هذه الأمثلة ، لأمكن — فى هذا الضوء الجديد الذى أطلقته الشرطية — اعتبار السحر بالاقتران فى كل من هذه الأمثلة بمثابة الجزء من الموقف الذى يرمز للموقف كله ؛ والسحر بالتقليد مقابلا اللازمة الثانية لتكوين الاستجابة المكتسبة الشرطية وهى التكرار للتثبيت .

وهكذا نجد أن الرمزية الشرطية التى تستند إلى تجارب باقلوف فى الفعل المنعكس الشرطى تكمل نظرية فريزر الترابطية للسحر وقد رأينا أن فرويد

---

(١) Chapple and Coon: "Principles of Anthropology"; New York, Holt, 1947. PP. 543-547.

(٢) راجع ملخص تجربة باقلوف فى الفعل المنعكس الشرطى فى كتاب « مبادىء علم النفس العام » للدكتور يوسف مراد (ص ١٨٧ — ١٨٩) الناشر دار المعارف بالقاهرة ١٩٤٨ .

يؤيد نظرية فريزر هذه ، ويبنى مقارنته بين العصابيين والبدائيين على أساس دراسة فريزر المقارنة لهذه الظاهرة . كما سبق أن بينا أن الطريقة الوظيفية لمالينوفسكى تعتبر مكملة للطريقة المقارنة . وأن الدراسة التفصيلية الضافية — لما تمتاز به من تعمق للعلاقات الوظيفية بين مظاهر الحضارة — تزيدنا فهماً لوظيفة السحر فى الأمثلة التى استعرضها فريزر استعراضاً مقارناً سريعاً بين شعوب مختلفة وعصور مختلفة . أما فضل المدرسة الأنثروبولوجية الأمريكية فهو فى المساهمة الإيجابية بإلقاء ضوء على أهمية الجانب المكتسب . وبذلك تكون هذه المدارس مكملة بعضها للبعض . ومما يرفع من قيمة هذه الآراء التى بسطناها فى هذا المقال أنها ليست محاولات نظرية ، وإنما يستند كل منها إلى طريقة خاصة ومنهج علمى معين تصطنعه كل من هذه المدارس . وقد رأينا أن إضافات هؤلاء العلماء تعتبر مكملة بعضها للبعض الآخر . فكل منهم أضاف — من وجهة نظر مدرسته — حلقة جديدة . فالمهمة التى تواجهنا الآن هى أن ننظم هذه الحلقات فى سلسلة متصلة .

ونعتقد أن ربط الوظيفتين السيكولوجية والاجتماعية اللتين قال بهما مالينوفسكى بالنظرية الترابطية وبالسببية الخاطئة اللتين قال بهما فريزر ، بالرمزية المشروطة التى تستند إلى تجارب باڤلوف ، بالنزعات العدائية القاسية المكبوتة فى اللاشعور التى قال بها فرويد ، بالإيحاء الذى يقول به الدكتور يوسف مراد يطلق فيضاً من الضوء على جنون السحر ويزيل ما علق به من غموض ويعطينا تفسيراً شاملا هو ما سنحاول تخطيطه بصورة تقريبية مبسطة فيما بقى من هذا المقال . ولكن هل يستطيع هؤلاء العلماء — الذين يتزعم كل منهم مدرسة من مدارس الفكر المعاصرة — هل يستطيعون مجتمعين أن يزحزحوا من يعتقد فى السحر عن اعتقاده ؟ ! .

ونفضل أن نتخذ أساس المناقشة فى هذا التفسير الشامل مثالا من البيئة المصرية وليكن مثال الدجال الذى يستخرج (الكتابة) . وهو المثال النموذجى المألوف . ولتكن حاله مريض بأحد الأمراض المجهولة الأسباب أو حالة من حالات العصاب . . يدعى الدجال أنه يعرف السبب . والسبب عنده دائماً هو الكتابة أو العمل السحرى . فبعد أن كان السبب مجهولا ، أصبح السبب بالنسبة إلى المريض معروفاً بالدليل المادى وهو الكتابة التى يعمل الدجال

على استخراجها[1] وإفساد مفعولها . وهنا وظيفة السحر التى بينها مالينوفسكى ، فهو يسد الفراغ الشاغر فى المعرفة ويعوض عن الجهل بالأسباب . وليس من شك فى أن المريض يحتاج إلى أن يعرف سبب مرضه . ويحتاج إلى أن يشعر بأن هنالك شيئاً يعمل من أجله . ويفسر الدجال طريقة العمل بأن بعض ذوى النيات السيئة استحوذ على أثر له (وينطقها العامة بالتاء) . وهذا الأثر هو أى شىء من متعلقات الشخص كمنديل أو قصاصة من ملابسه . وعمل عليه الكتابة عند أحد السحرة ثم دفن هذه الكتابة فى المقابر أو تحت عتبة الباب أو رشها له فى طريقه بحيث يمر عليها . . .

وإذا ما أضفنا السببية الخاطئة إلى الرمزية المشروطة لأمكن اعتبار الكتابة أو العمل السحرى مثيرا صناعيا ورمزا مشروطا ويعتبر فى الوقت ذاته سببا . ولا يعنينا من أمر هذه الكتابة القوة الغيبية فيها ، فمن نافلة القول نفيها أو إثباتها . وإنما تعنينا الرموز البسيطة المحسوسة ذاتها . فهذه وحدها تكفى لأن تكون لها الفاعلية . فيكفى لتكوين الاستجابة المكتسبة الشرطية أتفه الرموز . فيكفى مثلا أن ينتبه الشخص المتطير إلى أنه افتقد منديلا ولم يجده . فالمنديل أو (الأثر) قد يستخدم فى الكتابة (الجزء الذى يرمز للكل فى ميكانيزم الشرطية فى السحر بالاقتران) . أو يكفى أن ينتبه الشخص إلى أن بلاطة فى عتبة الباب مثلا قد تقلقلت من مكانها فيخامره الشك فى أنه قد دفنت تحت عتبة الباب كتابة حتى يخطو عليها فى غدواته وروحاته (ميكانيزم الشرطية التكرار للتثبيت فى فى السحر بالتقليد) . وكما أن أتفه الرموز قادر على تكوين الاستجابة لمثل هذه الرموز من شخص إلى آخر . كما أن لكل حالة ظروفها الخاصة وهنالك اختلافات فردية بين الحالات المختلفة .

وعلى ذلك فالكتابة أو العمل السحرى تمثيل وتقليد للغرض المطلوب

---

(١) يجرى الدجال بعض الطقوس ، ويتمتم ببعض التعاويذ الغريبة . ثم يستخرج الكتابة بما أوتى من مهارة لا يدانيها سوى خفة يد الحاوى الذى يستخرج الكتكوت من الطربوش ! . ولو قد أتيح للقارىء أن يفحص إحدى هذه اللفائف التى يستخرجها الدجال (الكتابة أو العمل) لوجد بها قصاصة من قماش يزعم الدجال أنها من ملابس الشخص المعمول له العمل ، وورقة باليه عتيقة مدون فيها رموز غريبة واسم الشخص واسم والدته . وغالباً ما يأمر الدجال بإلقاء هذه اللفافة بمحتوياتها فى الماء الجارى . وبذلك يفك العمل ، وتذهب المتاعب إلى غير رجعة .

بطريقة رمزية . وهذه الرموز البسيطة فى حد ذاتها تكفى لتكوين الاستجابة الشاذة . وفيها وحدها — من دون القوة الغيبية فى التى تنسب للسحر — يتوفر الشرطان اللازمان لتكوين الاستجابة المكتسبة الشرطية وهما : الجزء الذى يرمز للكل (الأثر — أو قطعة من ملابس الشخص فى السحر بالاقتران) والتكرار للتثبيت (كلما تخطى عتبة الباب ، حيث استقرت الكتابة ، فى غدواته وروحاته) . هذا بالإضافة إلى السببية الخاطئة ومعناها أن هذه الرموز المشروطة أو الكتابة هى فى ذات الوقت أسباب الكيد والإيذاء . أو بقول آخر لو رجعنا إلى تجارب باقلوف الأصلية التى توضح كيف تتكون الاستجابة المكتسبة الشرطية — (ولها ثلاثة أقطاب : الجرس ، والطعام ، واللعاب) لبدا وكأنما دق الجرس هو السبب فى ظهور الطعام ! يتبقى القطب الثالث وهو سيل اللعاب ونعتقد أنه يقابل الناحية النفسية الداخلية أو الاستجابة الشاذة للرمز أو العصاب .

والاعتقاد فى السحر أو فى الكتابة هو فى حد ذاته اعتقاد فى كيد أعداء أو متآمرين من الإنس أو من الجن أو من الإنس التى تسخر الجن للإيذاء . مثل هذا الاعتقاد يفصح عن التمنيات الشريرة حيال الآخرين وعن النزعات العدائية القاسية التى كبتت فى اللاشعور كما يقول فرويد . بل إنه ليذهب إلى أبعد من ذلك حين يقول إن الشياطين والجن إن هى إلا إسقاطات Projections فى الخارج للنزعات العدائية القاسية فى الداخل أى فى اللاشعور (١) . وقد رأينا أن فرط كبت هذه النزعات — إذا واتتها الرموز الملائمة — قد يترتب عليه استجابات شاذة أو حالات قريبة من العصاب . وإذا كان الإيحاء للعصابى بأن سبب مرضه هو الكتابة ، أفلا يكون فى استخراج الكتابة على يد الدجال إيحاء للعصابى بزوال السبب وإفساد للشرطية ؟ إذا صح ذلك فقد يكون استخراج الكتابة علاجاً وقتياً وسطحياً إلا أنه لا يصل إلى أصل العلة الكامنة فى اللاشعور .

ولا نستبيح لأنفسنا التورط فى الكلام عن (المرض) . . . (العلاج) . . . إلخ خشية مواطن الزلل . ومع ذلك فقد انتهينا فى تفسيرنا السابق إلى نفس الرأى الذى يقول به أستاذنا الدكتور يوسف مراد فى كتابه « شفاء النفس » ولا نجد أنسب من الاقتباس عن كتابه وهو خير من يتابع الحديث . . . « . . . وعامل

(١) S.Freud: Totem and Taboo. P. 95.

الشفاء فى معظم الحالات التى كان يعتقد أنها ناشئة عن تأثير الجن والشياطين هو بلا شك ما يعرف اليوم بالإيحاء . وكان نجاح العلاج يتوقف غالباً على قابلية المريض للإيحاء . ومما هو جدير بالملاحظة أن كثيراً من حالات الشفاء العجيبة التى يرويها القدامى كانت خاصة بأعراض هستيرية . ومن المعلوم أن مثل هذه الأعراض لا تصيب إلا الأشخاص الذين يتأثرون بسرعة بكل ما يوحى إليهم ، كما أنهم يتأثرون بكل ما يوحون إلى أنفسهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . فلا عجب أن يزيل الإيحاء ما سبق أن أحدثه إيحاء سابق . . .

والواقع أن عامل الإيحاء موجود دائماً فى كل محاوله علاج ، سواء كانت جسمانية أو نفسية . وقد اعتبر بعضهم الإيحاء الطريقة المثلى لمعالجة الأمراض النفسية . وطرق الإيحاء متعددة نذكر منها التنويم المغناطيسى وما يسمى بتحضير الأرواح وحفلات « الزار » وما إليها من الإجرآت التى تحرك المخيلة وتثير الدهشـــة .

غير أن الإيحاء ، وإن كان عاملا مساعداً فى عملية العلاج النفسى ، طريقة ناقصة لا تؤدى أبداً إلى الشفاء التام ، لأن الإيحاء قد يزيل العرض المرضى بدون التأثير فى علة المرض الحقيقية . والدليل على ذلك هو معاودة العرض المرضى أو ظهور عرض آخر بمجرد اصطدام الشخص بمشكلة جديدة . فالإيحاء لا يؤثر إلا فى جانب من الشخصية وكثيراً ما يكون هذا الجانب سطحياً ثانوياً . أما طريقة العلاج المثلى فهى التى تتناول الشخصية بأكملها وتنفذ إلى أعماقها للكشف عن علة المرض الحقيقية ومحاولة استئصالها . فليس الغرض من العلاج النفسانى إزالة العرض فحسب ، بل التأثير فى الشخصية كلها . . . » كتاب « شفاء النفس » ص ٩١ ، ٩٢ .

أخيراً قد سلطت المدارس المختلفة على ظاهرة السحر أضواء من زوايا مختلفة كل بحسب طريقته ومنهجه . وقد رأينا أن إضافات هذه المدارس مكملة بعضها للبعض الآخر . فكل مدرسة قد ساهمت بتفسير . وكل تفسير لا يشتمل إلا على جزء من الحقيقة . وقد يكون كل الحقيقة كامن فى ائتلاف هذه التفسيرات على اختلافها . وإذا ضمت هذه الأجزاء من الحقائق بعضها إلى بعض فإن وحدتها لا تتكون من المجموع العددى لها فحسب وإنما يضاف إليه العلاقات

التى توجد بين هذه الأجزاء ، والعلاقات التى توجد بينها وبين الوحدة . ومن مجموع هذه العلاقات يضاف شىء له قيمة ينبغى أن يؤخذ فى الحسبان . فالحقيقة كامنة فى ترابط وتكامل هذه التفسيرات فى صيغة كلية أو فى وحدة . وإذا لم يكن للمنهج التكاملى من ميزة سوى رحابه أفقه وإفساح صدره لأحسن ما فى المدارس الأخرى فحسبه هذا وأنعم به من منهج .

نجيب يوسف بدوى